السائح والتمثال

بقلم ألدو بالازتسكي

للأستاذ محمد لطفي جمعة

« يعد ألدو بالازتسكي Aldo Palazzaschi من أكبر كتاب يولونيا فهو إيطالي الأصل وكانت له جولة وصولة في أدب بلاده وقد رأس تحرير جريدة « مارزوكو » وهي أشهر جريدة للنقد الأدبي في إيطاليا وكانت تصدر في فيرنزه المعروفة عند غير الطليان باسم فلورنس وهي مهد الفنون والآداب وموطن دانتي البحري وساڤونارولا وماكيافيلي وبوكاشيو وميكال انجلو وغيرهم .

وقد نحا الأستاذ ألدو بالازتسكي في الأدب القصصي نحواً جديداً وهو معالجة الحقيقة الانسانية عن طريق الخفاء والغموض . وله كلمات مأثورة في مقدمة قصصه القصيرة وهي « إن الغموض يجلو كثيراً » وسيرى القارىء العربي صحة هذا الرأي » .

— ١ —

... وكان عائداً من بلدة في الصين حيث يعبدون إلهاً بادئاً ، راقداً في المعبد ويده تحت ذقنه ، ناظراً إلى بطنه وكأنها وعاء من اللحم الذي ملىء علماً ! معبود شيعان ريان متزن وأن لم يتذوق ثمر الخشخاش ولم ينشق أزهاره [1] لا يعبأ بجاره الذي حطمه ذووه وجرحوا جبينه بأشواك شجرة سقاها بعرقه ودمه وتعهدها ، فلما كبرت وأفرعت وأينعت صنعوا له من أخشابها ما صنعوا ، علموها الجمود فكفرت بنعمة الذي زرعها وسقاها . ولكن الجريح كان مشغولا عن دمه المهراق بالتفكير في العفو عنهم . ولا يسمع صوت سلفه الصالح الذي ساق جماعة بالعصى وشق بطون العصاة منهم بالذي : العصاة والسكين وألواح الحجر الناطقة ، كان يزجر ويهرق ويرعد ويدعو على الذين آذوا حفيده الأقصى ، ويدهش لسالمته وليونته واستسلامه وينعى عليه تسامحه ، أما الزمن فقد تغير وسار على مجل . والعصى التي كانت تسوق الجماعة ، أمست في أيديهم يسوقون بها الفتى الغريب ولا يبالون !! أليس يلقاهم بالكلام في السهل والجبل ويحاورهم بالكلام في الحقل والدار ، وعندما يحمي وطيس المعركة يجرد عليهم سيفه ويصوب نحوهم سهامه ويشرع في وجوههم رمحه ، ويحمي وجهه الهادىء وراء درعه ، ولكن السيف والسهام والرمح والمجن كلهـــا ... كلام ... كلام ... كلام عذب ومر وحار وحار . ولكنه كلام لا عهد لهم به . ولكنه كلام سيوف وخناجر ومدافع وقنابل ودبابات وسفافات « ماشين جنر » هذا الأمل المنشود « تانكس » عز الطلب « اڤيون شلز » من نوع ممتاز [1]

كان السائح عائداً من بلدة في الصين ، ولكنها لم تكن وطنه بل كان وطنه وراء بحار الغرب والشمال . فهو هارب من الحضارة باحث عن الوحدة والعزلة الدائمة عن أهل الغرب والشمال . وقد ظن أن ما يسعى إليه قد يكون في الشرق وراء الجبال الشاهقة والبحار العميقة والصحارى المترامية الأطراف .

طوحت به الأيام إلى هيكل نيبوس إله النور في مدينة طاس كند ، وراء جبال هيدار ، وهي الشامخة المعتمة بالجليد ، طوال العام بحوأن جليدها لا يذوب ولا يجرى ماء على سفوحها .

ولكنه يبقى أبداً مكتلا ، ملتفاً ، ناصع البياض كأنه شعر جسم على رأس شيخ هم ، اشتمل شيباً ، وزاد على عمر الأعوام وضوحاً وسمما . ولم يعلم الكهنة كيف وصل هذا الغريب الأشعث إلى باب الهيكل فقد وجدوه مرتمياً على العتبات متشبثاً بالأحجار ، لم يسمعوا له صوتاً وما شهدوا له حركة ، فلما دنوا منه تبينوه ، فوجدوه خائر القوى ، منقطع الأنفاس ، مغمض العينين ، شاحب الوجه مكشوف البدن ، في معظم أجزائه ، ولمح أحد الكهنة أن قدميه تقطران دما . وكانت له لحية سوداء بلون البقية من شعره فهو بلاريب شاب لم يتخط الثلاثين من عمره ، وإن كان النصيب والهم والأمل الخائب قد خطت على جبينه سطوراً عميقة كأنها محفورة بقلم من فولاذ في صفحة من المرمر الأصفر . وكانت عيناه حادتين ، لم تتغلب الآلام على ما يشع منهما من دلائل الحيوية النابضة . وقد تمتد نظراته إلى ما وراء الأفق ، كأنه يرى شيئاً

(١) في الأصل « وأن الاتزان لا ينال إلا بإحدى عاجين الوسيلتين »

(١) في الأصل هكذا ومعناها مدافع رشاشة ودبابات وقنابل طائرات

بعيداً انفرد هو وحده بشهوده فهو يراه يقيناً ولا يريد أن يشرك أحداً في رؤيته ، ولعله يخشى أن لا يصدقه أحد أو يشك في صدقه هل هي رؤية أم رؤيا هل هي حلم أم حقيقة ، سراب ثم ماء ؟ .

فلم يملك الكهنة أن ينفقوا الباب ويتركوا هذا الميت الحي وراءهم نهباً للذئب والدب وليس في وسعهم أن يدخلوه بدون تطهير من أدران الدنيا فهو غريب منبوذ ولا يجوز لأحدهم أن يمسه ولا يجوز له أن يمس أحداً . فهنا تفريق بين الطهر والدنس والنقاء والرجس . وهنا بطاقة الجسم تحتمها طهارة النفس . لقد هلك كثير من القاصدين إليهم قبل أن يصلوا ، وصل سالكون عدة دون أن تدنوا أقدامهم من العتبات . . . ولكن كل من يلمس العتبة لا يرد ، ولا يطرد لأنه وصل . فإن كان على قيد الحياة فلا بد من الإذن بقبوله . فما ذنب هذا حتى يحرم ؟ ألم يقرأوا في وصية نيبوس « بلوغ الباب قرين الدخول » ولكنهم أغلقوا الباب ليعودوا إليه بعد لحظة بإذن الدخول . فينقلوه فلما فتحوا الباب والتمسوه لم يجدوه في حدود الجدران فأخذوا في التفتيش بعد حتى الصباح

— ٢ —

وقال الأول : إن أثوابه أطمار بالية فهو أكثر تعرضاً للافتراس

والثاني : لقد حل خداء وتجمدت بداه فمن يكون هذا المسكين الذي قادته قدماه إلينا أهارب لاجيء أم طالب حكمة أم طالب قوت ؟ ... وقال ثالث : ليس طالب قوت ولا لاجيء . ولكنه يشد الهدوء واطمئنان النفس ، أنه بلا شك فار من دمامة الحياة التي قضى نضارة عمره في أحضانها . لقد تكشفت له عن حقيقتها ففر بالبقية الباقية من نفسه . ولكنهم كانوا يبحثون عنه قبل البحث عن سبب قدومه إليهم لأن نجاته من الهلاك أفضل من الكشف عن سر قدومه .

وقال أكبرهم سناً : صدقوني يا إخوتي أنكم تجيبون عن سؤالات يعجز صاحب الشأن نفسه عن الجواب عليها . فإن لمثل هذا الرجل ناحية غير موجهة إلى تحقيق أغراض بعينها .

وإن كانت له أغراض فقد نسيها أثناء الجهود التي بذلها حين كان يحاول بلوغها . ولا بد له من هذا النسيان وسر ذلك راجع إلى أن القوى التي ينفقها هي من فيض ما أعده له الإله لتحقيق أغراضه فيه — وهو الهدف الأعلى .

فهمهم أحد الكهنة وكان قصير القامة نحيل البدن أصفر الوجه وقال : الهدف الأعلى ! ما فتئت أذكر الهدف الأعلى وأسمع عنه . . فنظر إليه الذي كان يتكلم وقال :

الهدف الأعلى الذي يرمي إليه الإله هو نفس الغرض الذي كانت ترمي إليه الآلهة في كل العصور — رفع النفس إلى مستواها الأعلى وتوسيع آفاق مسراتها — ولكننا نضيع وقتاً نفيساً في الجدل وربما يكون أحد الضواري قد انشب أظفاره في ضيفكم ولعل وحشاً يقظاً كان يتتبع خطواته ، ويخشى أن يهاجمه وهو يوشك أن يلجأ إلى الهيكل ، فلما أن فتح الباب توارى الوحش وقد ضاع أمله في الانقضاض على فريسته ، ولكنه لم يرض من الغنيمة بالإياب السريع . فلما أغلق الباب بعد فتحه ظن الوحش أنه قد خلا له الجو وآن أوان الافتراس . ولكن الكهنة لم يلبثوا في حيرتهم حتى سمعوا صوتاً داخل المحراب يستغيث بلسان غير لسانهم ، ويبتهل ويتضرع بقلب مقروح وكبد حرى . فإذا هو الغريب نفسه . وقد عرى من ثيابه فقد أشفق عليه الإله وأمر بحمله إلى حرمه بلا واسطة ثم غمره في حوض طهارته وألقى بثيابه الممزقة وراء جدار الهيكل ليغمرها الجليد فتختفي إلى الأبد عن الأعين . كان الغريب يصلي ويستغيث بعنف ، بصوت متهدج وكلام متقطع ، وكانت لحيته الكثة السوداء تضطرب ، وأسنانه تصطك وقد تبدى ذاهلا عمن حوله من الكهنة ، الذين تجمعوا ليحدجوه بعيونهم بعد أن رأوا الإله يخرق له العادة ويقبله في المحراب

ولما فرغ من صلاته جلس وتكلم لهم بلغى البلاد التي جاب آفاقها وقد التقفها جميعاً من أفواه المتكلمين وهو في سياحته ، فقدموا إليه طعاماً من الشعير والزيت والفاكهة فلم يتذوق منها إلا قليلا وكان يدير عينيه في قلبه فيبدو عليه السرور أو الألم كما يبدو على وجه من يشاهد أنه في الماضي القريب السحيق . ولم يكن في الجمع بين هاتين الصفتين تناقض فإن ماضيه كان حافلا بالكفاح والجرى وراء الحقيقة : فهو غني بالحوادث ولذا رآه قريبا وكذلك كان ماضيه محفوفاً بعذاب النفس وألمها فقد اكتوى بنار الحب بقدر ما تعلق بأهداب المثل الأعلى . وتلك التي عذبته لم تكن جديرة بحبه فهجرها وهو يعطف عليها وتخلى عنها وهو مشوق إليها . هذا طرف من الحوادث الواقعة التي كان يتكلم عنها فيصغون إليه ، وهو يسح ويهضب بذكرياته ، كان غنياً وكان شاعراً في بابلوس عاصمة الدنيا المتحضرة ، وكان الناس متلهفين على آثاره والنساء متتبعات له متراصيات على جسده يحاولن أن ينهشنه بأفواههن المحمرة ، أو ينشبن فيه أظفارهن

المحلاة بالخضاب المتعدد الألوان . وكان يرفه بشعره وحكمته عن الناس وينعش قلوبهم ، ويغذى نفوسهم بابداع فكره ، ويفيض على حياتهم البشر والنور .

ولكنه لم يتزوج ولم يحن على أحد فقد وهبته العناية بصيرة بعيدة المرى فأنف أن تتصل حياته بنسل ، ولمح النفاق والجحود والنميمة ونكران الجميل والسخرية من خلال البسمات والضحكات والبشاشة الكاذبة والكلمات المعسولة والتبذل فى ذكر الحب والإخلاص والوفاء ، فتزعزعت عقيدته فى دينه لأنه أمسى قوة تواطأت مع السلطان المطلق ومن حوله من السادات وامتنع عليها أن تسلخ الأيمان عن هذه المظالم .

فأنكرها وأنكر الأيمان ثم تزعزع اعتقاده فى الإنسانية والمجتمع بعنف لم يعهده وأحس فى نفسه بفصل قاطع لا شفاء لجرحه وهو الاحتقار لكل ما يحيط به . لقد أحس الهارب بالاحتقار نحو المال والحب والمرأة التى أحبها حيناً وأحبته طويلا ونحو القوة القاهرة التى خنقت العدل وأحيت الظلم والمنافقين والأوغاد والضعفاء . وقد حاولت تلك التى أحبته « أينوبيا » أن تستل منه شعور الاحتقار نحو الدنيا والحكم عليها بالصغار ، فلم تستطع ، لأن أقوالها وأفعالها كانت تزيد إيمانه فى صحة حكمه عليها وعليهم . وبعد أن كان يؤمن بنفسه أمسى لا يؤمن بشىء فأخذ يبكى أحلامه وأمانيه العاثرة وهو يرى بعينى رأسه رجال المادة والقوة والملذات الجشعة متربعين على ركام الإنسانية ولا هم لهم سوى كسب الأموال وكنزها والتحكم فى أعناق الرجال التى أذلها الحرص وجال على أفواهها الجوع ووعى قلوبها الاحتياج والشقاء وتكشفت له الحياة عن بعض حقيقتها فهاهو الإنسان يستمتع بحواسه ولديه من الذهب والورق ما يستمد منه العظمة الكاذبة بقدر ما يملك منها ، حتى صار ميزان أقدار الرجال بما يملكون من البضائع ، وبلغ بالفقراء يأس آخذ بالكليتين فآمنوا بالعذاب والأوهام قال الشريد للكهنة « فأقصرت يائساً وصرفت نفسى آسفاً وعولت على الفرار بالبقية الباقيـــة من حشاشتى ووجدانى واستكبرت أن أصير على معاشرة الناس بعد الذى تحققته وبعد أن صرت أبغض المجالس والنوادى ولا أرتاح إلى أحاديثهم ، ولا أغتبط بالأصدقاء وصرت أجزع من الذين ادعوا محبتى ولا أرى لنفسى قدرة على احتمالهم » فقطع أحد الكهنة حديثه فى رفق وقال له « وتركت وراءك مالك ومكانتك فى بابلوس عاصمة العالم المتحضر وقضيت عشر سنين فى السياحة باحثاً عن الحقيقة . وخرجت من وطنك لتقلب الدنيا وتجعلها كما يجب أن تكون ؟ .. أليست هذه غايتك وأمنيتك وحكمك ! فسكت السائح المجهول كأنه فى سكرة طويلة ونشوة مستمرة وقال كاهن آخر : لقد كان وصولك إلينا فى هيكل نيبوس إله النور إرهاصاً فإن الذين يضلون الطريق دون بلوغ كعبة الآلهة كثيرون . ووصولك إلى المحراب بدون وسيط علامة إكرام . فحملق السائح فى وجوههم الهادئة لأنه لم يعلم أنه جرد من الهياكل التى كانت حول بدنه ودخل فى حمى الإله بدون وسيط ، وأطال النظر فى الوجوه المستنيرة المطمئنة وأخذ ذهنه يكر إلى الوراء فجأة بغير إنذار وتنبه إلى عرائه فأطرق وأخذ يبكى حتى بلل لحيته .

(البقية فى العدد القادم) محمد لطفى جمعة

إعـــــلان

تعلن وزارة الصحة العمومية أن الدراسة بمدارس مساعدات الولادات الزائرات الملحقة بمراكز رعاية الطفل بالقاهرة والأقاليم بطنطا والزقازيق وشبين الكوم وبنى سويف وأسيوط ستبدأ فى أول يناير سنة ١٩٤٨ فعلى راغبات الالتحاق أن يقدمن طلباتهن على ورقة دمغة فئة ثلاثين مليما بعنوان حضرة صاحب العزة مدير قسم رعاية الطفل بوزارة الصحة (مدارس) بحيث يصل فى ميعاد لا يتجاوز ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٤٧ . وعلى راغبة الالتحاق إرفاق شهادة بأنها مصرية الجنس وغير متزوجة وأنها حسنة السير والسلوك — وكذلك شهادة الميلاد والشهادة الدراسية الحاصلة عليها . ويشترط فى الطالبة الا يقل سنها عن ١٧ سنة ولا يزيد عن ٢٥ وأن تكون حائزة على شهادة الكفاءة للمعلمات أو شهادة اتمام الدراسة الإبتدائية أو التربية النسوية أو الأولى الراقية .

٨٥١٥

قريبـــــا

تصـــــدر

الفـــكر الجـــديد

أول مجـــلة من نوعها

تصور آمال الشعوب وآلامها

فلايفوتك أن تطلبها من باعة الصحف

أقصدوا :

متحف فـــؤاد الأول

لسكك حـــديد وتلغرافات وتليفونـــات الحكومة المصرية
(أمام مخزن بضائع محطة مصر)

لتشاهدوا تطورات وسائل النقل البرية والبحرية والجوية فى مختلف الأزمان ولتروا أكبر وأدق مجموعة من النماذج والخرائط والصور المضاءة لتاريخ النقل فى مصر والخارج

المتحف مفتوح للزيارة كل أيام الأسبوع ما عدا أيام الاثنين والعطلات الرسمية كما يأتى : —

فصل الشتاء — من أول نوفمبر إلى آخر أبريل من الساعة ٨ ٣٠ إلى الساعة ١٤ ٠٠

رسم الدخـــول ٢٠ مليماً

تليفون رقم ٤١٩٦٤